العرب
السبت 2019/12/07
السنة 42 العدد 11551

تراجع «صناعة الأمل» يزيد أعداد المنتحرين في المجتمع المصري

تبرير فعل الانتحار يؤسس لتحوله من ظاهرة مرفوضة إلى وثيقة تبرهن على قوة الشخصية

قرعت حادثة انتحار شاب مصري الأسبوع الماضي، ناقوس الخطر حول إمكانية تصاعد تفكير الشباب في الانتقام من أنفسهم، بسبب حالة التعاطف غير المسبوقة، حيث تحولت مواقع التواصل الاجتماعي إلى منصة للدفاع عن الشاب وتبرير موقفه والتماس الأعذار له.

أميرة فكري
كاتبة مصرية

أوضحت حادثة انتحار الشاب المصري نادر محمد من أعلى برج القاهرة، الأسبوع الماضي، أن نظرة الشباب للانتحار تغيرت. وبعد أن كانت الأغلبية تعتبره أمرا محرما وفعلا مشينا، أصبح المنتحر بطلا وشهيدا للإنسانية، حتى أن البعض أضحى يدافع عمن يفكر في التخلص من حياته، ويصفه بالشجاع الذي استطاع قهر الواقع.

استجاب محمد "ع" أخيرا لنصائح والدته، وقرر أن يتلقى العلاج النفسي عند أحد أطباء القاهرة، بعدما كان يفكر جديا في الانتحار، فقد ظل طوال الأشهر الماضية يخطط للتخلص من حياته، بعدما وجد تعاطفا مجتمعيا مع المنتحرين، لكنه لم يشعر بهذا التعاطف من المحيطين به.

ولا ينكر الشاب صاحب الـ25 عاما، في حديث مع "العرب" أنه يعيش في مستوى مادي مناسب، يحلم به أغلب الشباب، لكن كل المبررات والأسباب التي تدفع أقرانه إلى الانتحار تتوافر لديه، مثل انتشار الظلم والفساد، في حين لا يجد المتفوق والمحترم فرصة لتحقيق حلمه.

ويقول "أغلب الشباب الذين انتحروا، أو فكروا في إنهاء حياتهم بالانتقام من أنفسهم، لم يجدوا من يستمع إليهم ويحتوي غضبهم، كلهم ضحايا الصمت".

واقع مرفوض

بلغ الأمر حد اعتقاد بعض الشباب أن المنتحر يستحق تزيين فعله والدفاع عن موقفه واعتباره قدوة ومثلا أعلى، وهو ما يؤسس لظاهرة خطيرة بأن يتحول الانتحار من فعل مرفوض ودليل ضعف وهروب، إلى وثيقة تبرهن على مدى قوة الشخصية، وكل ذلك يقود إلى احتمال تصاعد نسب الانتحار بعدما سيطرت الفكرة على شريحة واسعة من الشباب.

كل شاب يتعاطف مع المنتحر قد يكون فكر في إنهاء حياته كأسهل وسيلة لرفض الأمر الواقع، هكذا يؤكد محمد، لأن له ثلاثة من أصدقائه لديهم الرغبة ذاتها، ويدافعون عن المنتحر مهما كانت دوافعه، ويعتبرونه بريئا، وهم من زرعوا الفكرة في عقله وآمن بها.

> **منتحرون باتوا يتخلصون من حياتهم في أماكن مشهورة، حتى يجبروا الجميع على البحث في أسباب هذه الخطوة**

صحيح أن محمد يملك دائرة واسعة من الأصدقاء الذين يمكن أن يهونوا عليه آلامه، ويشكو لهم أسباب اكتئابه، لكنه يقول "للأسف، أصبحت كل العلاقات المحيطة بالشباب مصدرا للتشاؤم".

حتى أن نادر، الذي انتحر من أعلى برج القاهرة، ذهب إلى المكان برفقة أصدقائه المقربين، ولم يكن أحد منهم يعرف أنه يخطط للتخلص من حياته، لكن أحدهم تحدث بعد الواقعة، وقال صديقه إنه كان دائم الصمت، و"كلما سألناه يرد بأنه لا فائدة من الكلام طالما لن يفهمني أحد، وظروف المستمعين تشبه حالتي، وليس هناك أمل في تغيير واقعنا".

وتؤكد سوسن فايد، أستاذة علم النفس الاجتماعي، لـ"العرب" أنه "كلما تراجعت صناعة الأمل، كانت نسبة التعاطف مع المنتحر أعلى، لأن الفئات العمرية في سن المراهقة، وحتى في سن الـ30، تنخفض لديها مبررات الانتحار إذا وجدت شعاع أمل في البيئة المحيطة، وبالتالي تتراجع معدلات التشاؤم".

وتزداد أهمية التعاطف مع المنتحر إثر وصول طموح الشباب إلى أدنى مستوى؛ إذ يمكن بسهولة، عند البحث في أحلام الكثير منهم، أن تكون الردود مقتصرة تقريبا على شراء منزل بسيط وامتلاك تكلفة الزواج وإيجاد أي فرصة عمل والتعامل مع الضحية بشكل إنساني.

صكوك الجنة والنار

لدى شباب مصر معضلة كبرى ترتبط بأن التركيز الأكبر إعلاميا وشعبيا، يكون على النماذج السلبية؛ فمثلا، هناك موهوبون في مجالات كثيرة، لكن أغلب الذين يأخذون حقوقهم في الظهور والشهرة ويحققون نفوذا ماليا، ويضمنون لأنفسهم مستقبلا آمنا، هم شخصيات لا تستحق هذه المكانة.

وأضافت فايد "نعم هناك أسباب كثيرة للانتحار، مثل تجاوز أزمة عاطفية أو شعور بالظلم، لكن تعاطف الشباب مع المنتحر يكون لأسباب مرتبطة بفقدان الأمل، والشعور بأن القادم أسوأ، في حين أنه يمكن تصدير نماذج إيجابية، مثل تجربة رجل أعمال بدأ من الصفر، وواجه صعوبات حياتية حتى وصل إلى مكانة مرموقة، وهنا نقدم قدوة حسنة".

ورغم تحوّل حادثة الشاب المنتحر من أعلى برج القاهرة إلى قضية رأي عام، فإن ما يلفت الانتباه أن الخطاب الديني كان المسيطر على المشهد، وفتح الباب لجدل واسع بين السلفيين والأزهريين حول اعتبار الشخص الذي يتخلص من حياته بالانتحار، مسلما أم كافرا؟

وكلما انتحر شاب أو فتاة دار النقاش حول نظرة الله إليه أو إليها بعد الموت، ما يزيد، وفق علماء وأطباء النفس، مشاعر اليأس بين الفئات العمرية الصغيرة التي تفكر في التخلص من حياتها للهروب من الواقع الذي لم يكتفِ بإحباطها، بل يصر على تعذيبها بعد موتها.

ويؤكد جمال فرويز، الطبيب المتخصص في العلاج النفسي، لـ"العرب" أن "الشاب الذي يفكر في الانتحار يرى أن إنهاء حياته بداية الراحة لأن ما عند الله أرحم من البيئة التي يعيش فيها، وعندما يتحول الناس ورجال الدين إلى متحدثين باسم الله، ويحددون أصحاب الجنة وأصحاب النار، فإنهم بذلك يدفعون غيرهم إلى التفكير في الرحيل للخلاص من واقع لا يوفر الحد الأدنى من الراحة النفسية، وقمة الكوارث اقتناع الناس بأن العلاج الديني هو الحل لمواجهة الانتحار".

وكتبت فريدة محمود، وهي طالبة تدرس بكلية الإعلام في جامعة القاهرة، على حسابها الخاص في موقع فيسبوك، تعليقا على الجدل الدائر حول تكفير الشاب المنتحر "هذه النوعية من النقاشات كفيلة بأن (تجعلني) أتخلص من حياتي، أو على الأقل أتعاطف مع كل شاب يقتل نفسه بيده، لأنه عجز عن التأقلم مع بيئة لا ترحم وتنزع منا الأمل بأن الآخرة خير من الدنيا، هؤلاء قتلوا الأمل في نفوسنا أحياء، ويبشروننا بالنار بعد الممات".

وما يزيد تعاطف بعض الشباب مع المنتحر أن المسؤولين لا يبحثون عن مسببات المشكلة، وينزلون إلى مستوى تفكير هؤلاء الضحايا، ولا يدرسون المبررات التي دفعتهم إلى الاستسلام أمام فكرة الانتحار، ليشعر باقي من يفكرون في تكرار الفعل نفسه بأن احتجاج من سبقوهم مسموع. حتى المجتمع نفسه يُصاب بصدمة لحظية، وسريعا ما يتجاوز هذا الفعل، دون أن ينتفض ويراجع نظرته وتعاملاته مع الشباب.

وتشارك الأسرة والمدرسة والجامعة والمؤسسات الثقافة والدينية والإعلامية، كل يوم في صناعة منتحر جديد، أو تزرع في عقل مجموعة من الشباب فكرة الانتحار، بسبب إصرارها على فرض طريقتها على المتلقي، حتى أصبح هناك من ينتحر بدافع قرارات وتصرفات أسرته، وآخر يقتل نفسه بسبب بيئة التعليم المحبطة، وثالث يقوم بالفعل ذاته لأن الإعلام يمجد الفاشلين ويصنع منهم أبطالا.

فرق بين الواقع والمأمول

يوضح جمال فرويز "إذا كان انتحار الشباب تعبيرا عن الاحتجاج على أمر فشلوا في تغييره وأصبح حالة تستحق التوقف، فإن الأزمة تتفاقم إذا استمر الصمت على الوضع الذي دفع هؤلاء إلى التخلص من حياتهم، وبمرور الوقت يزداد التعاطف مع المنتحر".

والمتابع للكثير من حالات الانتحار بين الشباب يكتشف أن كلا منهم أنهى حياته بهذه الطريقة المؤلمة لتوصيل رسالة تفيد بأن هناك شيئا ما خطأ، ولا بد من التدخل الفوري لتغييره، حتى لا يتكرر هذا المشهد المأساوي مرة أخرى، وكي يعيش باقي الناس في أمان وسلام.

رسالة لصناع القرار

انتحرت فتاة مصرية قبل أيام، بإلقاء نفسها في نهر النيل، لأن أسرتها ضغطت عليها للزواج من أحد أقاربها، وهو ما فعلته فتيات أخريات من قبل، وكأن جميعهن يردن تغيير عقلية الأسر في تعاملها مع بناتهن عند اختيار شريك الحياة، والكف عن فرض أمر واقع عليهن.

كما يشهد موسم الامتحانات في مصر ارتفاعا في معدل الانتحار بين الشباب كتعبير عن الاحتجاج ضد نظام التعليم القائم، وكأنه رسالة لصناع القرار تنبههم إلى حتمية التغيير.

ويلجأ البعض من الشباب إلى أساليب حديثة في طريقة الانتحار بالتركيز على ما يمكن وصفه بـ"الموت الدرامي"، بأن يتخلصوا من حياتهم في أماكن مشهورة ولها رمزية، حتى يتركوا صدمة، ويجبروا الجميع على البحث في أسباب إقدامهم على هذه الخطوة.

وأصبحت أكثر حوادث انتحار الشباب في مصر تتم بوسائل لا تمنح فرصة الإنقاذ، مثل القفز أمام قطارات مترو الأنفاق، أو من أعلى برج القاهرة، أو إلقاء النفس في نهر النيل، مقابل تراجع التفكير في التخلص من الذات داخل المنزل بالطرق التقليدية، عبر تناول جرعات زائدة من الأدوية القاتلة، أو قطع الشرايين، أو إحراق النفس، أو القفز من أعلى سطح البيت.

وتبين أن الشاب الذي انتحر تحت عجلات مترو الأنفاق بالقاهرة مؤخرا، يعيش في مدينة المنصورة التي تقع شمال القاهرة، وتبعد عنها 111 كيلومترا، وقطع كل هذه المسافة ليتخلص من حياته في مكان حيوي وشهير ويكتظ بالناس، مع أنه كان بإمكانه الانتحار في مقر إقامته.

وتبين هذه الحالة عمق التغير في مفاهيم الانتحار عند الشباب، فبعد أن كان التخلص من النفس مرتبطا بأسباب لحظية دون وعي أو إدراك لما يفعله الشخص، أضحى المنتحر يفكر ويخطط ويضع سيناريوهات ما بعد الرحيل، ويدفع الجميع إلى التفتيش عن أسباب تفكيره في هذه الخطوة.

ويرى جمال فرويز أنه "لا يمكن لأي مجتمع أن يخفض معدلات الانتحار بين صفوف الشباب، أو ينمّي التعاطف معهم، طالما غابت ثقافة العلاج النفسي بين أفراده، واستمر التعامل بريبة ونظرة سلبية مع هذا النوع من الطب، فإذا تحدث شاب إلى أقرب الناس إليه وقال له إنه مكتئب ويريد الذهاب إلى معالج نفسي قد ينتشر نبأ إصابته بالجنون، وهو ما يدفع الكثير من الشباب المكتئبين إلى رفض الفكرة من الأساس".

والأخطر، وفق سوسن فايد، أن يستمر الصمت الرسمي على مسببات انتحار الشباب، والتعامل مع كل حالة على أنها فردية، فلا يمكن انتظار تحول الأمر إلى ظاهرة حتى تلتحم المؤسسات مع الشارع لوضع حلول مناسبة، ولا يعقل أن يقتصر النقاش مع الشباب على لغة الدين لإقناعهم بالتراجع عن التفكير في الانتحار أو بعدم التعاطف مع المنتحر، لأن من آمنوا بأن قتل أنفسهم سوف يحقق لهم السعادة لن يقنعهم خطاب الحلال والحرام.

واتفق الطبيب النفسي، وأستاذة علم الاجتماع، ومعهما الشاب محمد، على أن المواجهة الفعلية لانتحار الشباب وارتفاع منسوب التعاطف مع المنتحرين، تبدأ بإجراء دراسات معمقة لكل حالة على حدة، لمعرفة الأسباب والقواسم المشتركة بين حالات الانتحار عموما للخروج بدروس مستفادة لكل جهة بحيث تكون هناك خارطة طريق أمام الأطراف المختلفة لكيفية التعامل مع العقلية الشبابية، وفق مستجدات العصر.

شهداء الجوع والطائفية في لبنان

بيروت - خلال أيام معدودة سقط أربعة "شهداء" وأنقذ خامس من الموت. هؤلاء لم يصبهم رصاص قوى الأمن ولا نالوا نصيبا من اعتداءات من يسمونهم "شبيحة" ممن سعوا مرات إلى إجهاض انتفاضة اللبنانيين.

أربعة اختاروا الموت لعجزهم عن تأمين الرغيف والدواء لأطفالهم وأسرهم. حاصرهم العوز... اختاروا الانكفاء عن الحياة بصمت.

ولكن رغم ضجيج الاحتجاجات وإصرار الانتفاضة على استعادة كرامة اللبنانيين الذين بات ثلثهم تحت خط الفقر او يجاهد لإبعاده، ترددت أصداء الصدمة المريرة في كل شارع وحي، كل قرية ومدينة.

سقط في الانتفاضة أولا أول شهيد بالرصاص علاء أبو فخر، والأربعة لم يحتملوا وطأة العجز والعوز والقهر. لا دولة تنقذهم ولا محاكمة الفاسدين الذين نهبوا البلد ولا استعادة المليارات التي هرّبها الأشباح قريبة المنال... ولا عنوان لقاض يسترد حقوق شهداء الجوع والذل.

عجز الكسيح أمام سلطة كبار "النخبة" الحاكمة، عجز أكثر مرارة أمام بطون خاوية لا تفهم لغة البحث أولا عن عدالة النظام والسلطة... ولا إرضاء الأطفال الجوعى والمرضى بحلم لبنان بعد تصديره نفطا.

أحدهم استسلم لـ"عقلانية"، مستغربا كيف ينتحر رجال، بل نصح من في قعر المأساة بأن يتفادى الانتحار باللجوء إلى طبيب نفسي.

مَن لا يملك ثمن رغيف، هل يبحث عن طبيب؟

المأساة أن في لبنان اليوم 160 ألف مواطن خسروا أعمالهم خلال 50 يوما. 160 ألفا مع مَن يعيلون، قد يتحول الرقم إلى نصف مليون... مشروع شهيد.

وقد كشف رئيس مركز الدولية للمعلومات جواد عدرا في تغريدة على حسابه عبر تويتر، أن متوسط عدد حالات الانتحار سنويا في لبنان من 2004 إلى 2007 بلغ 60 حالة، في حين ارتفع إلى 103 حالات في 2008، وتابع الارتفاع فوصل إلى 111 حالة في 2013، 128 حالة في 2016، 143 حالة في 2017، 155 حالة في 2018، وحتى سبتمبر 2019 بلغ 105 حالات وفي أيام من ديسمبر 4 حالات.

المشهد ليس من عالم الخيال والخرافات، بل هو حقيقة موجعة ومرّة في لبنان اليوم، حيث بات أكثر من نصف الشعب اللبناني تحت خط الفقر، وعائلات بكاملها تعيش بأقل من 3 دولارات في اليوم، والبطالة تخطت 40 بالمئة، إضافة إلى البطالة المقنعة.

لقد أدى غياب الحكم الصالح في لبنان إلى فشل سياسات التنمية المستدامة، فأصبح البقاء في السلطة والاستفراد بالقرار والتنفع منه المشروع الأساسي للنخب الحاكمة. لقد تقلصت الأحلام والأجندات القومية الواسعة إلى وطنية ضيقة، ثم تشوهت إلى أجندات فئوية تأخذ أشكالا طائفية وطبقية.

ولد النظام في لبنان نتيجة الحرب بشكل أساسي. لقد حُلّت النزاعات بين المجموعات الدينية عبر منح كل منها حصة في الحكم.

ويروي التاريخ أنه عندما اندلع صراع طبقي هناك في منتصف سبعينات القرن الماضي، تحول بسرعة إلى حرب أهلية بين الميليشيات اليمينية المسيحية والميليشيات الإسلامية اليسارية.

ولإنهاء النزاع في لبنان، تطلب ذلك في اتفاق الطائف لعام 1989 من جميع الفصائل التخلي عن أسلحتها وتوزيع المناصب الحكومية على السياسيين من مختلف الأديان.

لقد أبقى اتفاق تقاسم السلطة هذا السلام في لبنان. لكنه أعطاه أيضًا نظامًا سياسيًا قائمًا على الفصائل الدينية.

وتعكس التقسيمات الإدارية في لبنان الانقسامات الدينية، حيث يتركز الشيعة في جنوب البلاد وشرقها والمسيحيون الموارنة يسيطرون على المناطق الوسطى بالقرب من بيروت.

وتحمي شبكات المحسوبية التي يديرها "السيد"، كما يطلق على الزعماء الطائفيين الأقوياء في لبنان، مصالح مجتمعاتهم الدينية.

> **الأحلام والأجندات القومية الواسعة تقلصت إلى وطنية ضيقة، ثم تشوهت إلى أجندات فئوية تأخذ أشكالا طائفية وطبقية**

لكن الحكم الديني جعل لبنان يسير في طريق عدم اللامساواة المذهل. وفقًا لقاعدة بيانات اللامساواة العالمية، فإن أغنى 1 بالمئة من اللبنانيين يمتلكون ما يقرب من ربع ثروات البلاد. البنية التحتية في لبنان تنهار. انقطاع التيار الكهربائي مشكلة مزمنة حتى في أحياء الطبقة الوسطى الحضرية.

لكن وفقًا للعالم السياسي باسل صلوخ، فإن حكام لبنان "يستخدمون التعبئة الطائفية لتمويه الفوارق الاجتماعية والاقتصادية الطائفية"، وهي استراتيجية فرّق تسد.

ويجادل المستفيدون من هذا النظام بأن استقرار لبنان يعتمد على هذا التوازن الطائفي. وبالفعل، كانت الطائفية فعالة بشكل ملحوظ في إحباط ظروف المعارضة على مدى السنوات الثلاثين الماضية. ويعترف مراقبون بأن الطائفية هي بناء اجتماعي.

لكن الأمر الجيد أن هذه السياسة غرست انعدام ثقة عميق في الحكومة؛ إذ أظهر استطلاع حديث أن 96 بالمئة من اللبنانيين يعتقدون أن الفساد السياسي مستوطن.

وكتب المؤرخ أسامة مقدسي في كتابه الذي صدر عام 2000 بعنوان "ثقافة الطائفية"، "لقد صورت الطائفية كقوة متجانسة، لم تتغير في وجه التاريخ". لكنه يتابع قائلاً "لقد تم إنتاج الطائفية. لذلك يمكن تغييرها".

ويعاني اللبنانيون من مختلف الديانات الجوع الذي يقول عنه المحتجون "الجوع ليس له دين".

وتتساوى التقديرات الصادرة مؤخراً حول اللامساواة في الثروات والدخل في لبنان مع بعض أكثر الاقتصاديات اللامتساوية في العالم.

وقالت الباحثة داليا غانم يزبك، التي تعمل في مركز كارنيغي للشرق الأوسط ومقره بيروت، لفاينانشال تايمز "طالما استمر انعدام المساواة والظلم الاجتماعي والتهميش -السياسي والاقتصادي- والفساد والمحسوبية والمحاباة، فلن يتوقف الناس ولن تتوقف الاحتجاجات، بل ستتوسع. الشباب نفد صبرهم، ويريدون التغيير".